استراتيجية المشتركات القيمية واستراتيجية دار الإسلام

محمد الناصري ■

مما لا شـك فيه أن عالمنا المعاصر يحظـى بتطور وثروة غير مسبوقة، يستحيل تخيلهما قبل قرن أو قرنين؛ إذ شهد العالم في العقود الأخيرة تحولات مهمـة على النطاق الاقتصادي، وعلى مستوى التنظيم السياسـي، وعلى صعيد التطور العلمي الذي حقق نتائج باهرة مادياً أفادت الإنسـانية، وحُلت معضلات بشـرية كانت إلـى عهد قريب من قبيـل المسـتحيلات... كذلك أصبحت المجتمعات وأقطارها المختلفة أكثر تقارباً مما كانت، ولم يقتصر هذا كلـه على مجـالات الاقتصـاد والاتصال، بل حـدث أيضاً في الأفكار والمثل العليا.

ومع هذا كله نعيش في عالم يعاني مظاهر قاسية من الحرمان والقهر، ظهرت فيـه أزمات كثيرة، وهي أزمات عالمية بقدر ما هي شـاملة، إذ تضرب في غير مكان وعلى غير صعيد من صُعُد العمل الحضاري والنشاط البشري. وأصبح من تكرار القول: الكلام عن المـأزق الوجـودي الراهن، كما تشـير إليـه عناويـن المؤلفات والمقـالات التي تتناول الوضع البشـري مثـل: الصدمة، الرعب،

■ باحث في الفكر الإسلامي وحوار الأديان والحضارات، المغرب.

النهاية، السقوط، الانحلال، العدمية... إلى أن أصبح عنوان: «العالم في أزمة» من أكثر العناوين شيوعاً وتداولاً.

فإذا نظرنا جلياً في كل ما يشهده كوكب الأرض من تصادم وحروب ومجاعات وأزمات وكوارث، فإننا نجد أن كل الاحتمالات المطروحة أمامنا لا تنذر إلا بخطورة الوضع، والبشرية مهددة بأكملها إذا لم تبدد ـ مسرعةً ـ المخاطر التي تتهدّدها. إن وجه الخطورة الذي نتحدّث عنه يتمثل في المشكلات الآتية:

- تفشي النزاعات الدولية، وصولاً إلى الحروب الداخلية والإقليمية التي تجتاح العالم،... وقد عجزت منظمة الأمم المتحدة عن إيجاد حلول لكثير من النزاعات القائمة نتيجة قصورها الذاتي، وهيمنة بعض الدول على سياساتها.
- تهديد البيئة الطبيعية بالتلوث والتصحر وارتفاع درجة الحرارة، فضلاً عن تآكل الموارد والثروات الطبيعية وسط حمى التنافس المادي المفرط بين القوى الدولية.
- الانحراف في تسخير العلم والمعرفة؛ فبدلاً من تسخير العلم لإسعاد الناس ومعالجة مشكلاته صار العلم والمعرفة يسخران لتصنيع وسائل الدمار الشامل وغيرها مما يهلك الحرث والنسل.
- تدهور القيم الروحية والإنسانية إلى درجة مخيفة، من أبرز مظاهرها الاعتداءات الصارخة على حقوق الإنسان الفردية والجماعية في أكثر من منطقة في العالم. وتبدو كل الجهود التي تبذلها منظمة الأمم المتحدة غير مجدية في إيجاد حلول ناجعة لوقف هذه الاعتداءات وفق مبادئ العدل والمساواة؛ لتتفشى الكراهية وجميع أنواع التهديد للسلم والأمن العالميين.

إجمالاً؛ ثمة إحباط عام يلف الأسرة الدولية من جراء الوعي بتدهور المستقبل. نعم هناك خوف على المستقبل، وخوف مما قد يحمله مستقبل الجماعة الدولية من تدهور أمني، ومشكلات اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية... الأمر الذي أدى إلى طرح أخطر سؤال نعرفه في العصر الحديث:

الإنسانية إلى أين؟ مما يشير إلى أن تحقيق حلم السلام العالمي مطلب صعب المنال. وإذا كان الأمر كذلك؛ فماذا عن أقصر الطرق التي يمكن السير على دربها للوصول إلى أقرب نقطة من هذا الحلم البشري؛ حلم سيادة السلام العالمي حول الأرض؟ وبتعبير آخر: ما هو سبيلنا تضامنياً إلى منع تفاقم هذه الأزمات، ومنع انهيار فرص التعاون بين الأمم والشعوب والدول كي لا يستمر الوضع الإنساني في الانحدار للأسوأ والأخطر؟

إن تعزيز الوعي بثقافة السلام كفيل بتحقيق السلام والأمن والعدالة والتعاون الإنساني، وأن لا غنى عن تعزيز ذلك من منطلق التأكيد على المشتركات القيمية التي تجمع بين مكونات المجتمع الإنساني على اختلاف أديانهم وثقافاتهم

نعتقد أن تعزيز الوعي بثقافة السلام كفيل بتحقيق السلام والأمن والعدالة والتعاون الإنساني، وأن لا غنى عن تعزيز ذلك من منطلق التأكيد على المشتركات القيمية التي تجمع بين مكونات المجتمع الإنساني على اختلاف أديانهم وثقافاتهم، باعتبارها استراتيجية كفيلة بأن توحّد بين الناس، وأن تدفعهم نحو التفكير في حلول جماعية لتجاوز أزمات واقعهم في الحاضر والمستقبل... من هنا كان الحديث عن استراتيجية المشتركات القيمية. أما الحديث عن الشق الآخر، وهو استراتيجية دار الإسلام، فيأتي إيماناً من الباحث بأن المشكلات في زمن العولمة هذا كونية إنسانية تشترك فيها كل الحضارات، وإن لم تسهم في التسبّب بها، فإن كل خلاص لا يتم في إطار المجموع العالمي ويتحرك من خلاله سيكون خلاصاً جزئياً، ولا يمكن لحلول مشكلات العالم أن تكون جزئية، بل في مستوى كونيتها، ولا ندرك مثل هذا الخلاص إلا في الإسلام وبالقرآن، فالوضع العالمي الراهن لا يمكن أن يتقبل إلا حلولاً وبدائل قادرة على تقديم نفسها عالمياً؛ وفي الوقت نفسه يكون قادراً على استيعاب وتجاوز فلسفات الأرض ومناهجها كافة. فهل المنظومة القيمية القرآنية قادرة على الاطلاع بهذا الدور الإنساني المتجاوز للعوائق الجنسية والعرقية؟ وهل تمتلك دار الإسلام شروط النهوض الحضاري لاستئناف دورها في بناء الحضارة المعاصرة

والإسهام في إنقاذ البشرية مما يتهددها اليوم من خطر التفكك والانهيار؟ هذه الأسئلة نحاول مقاربتها من خلال ما يلي:

أولاً: في استراتيجية المشتركات القيمية

نعني بالمشتركات القيمية: مجموعة القيم الأساسية التي يمكن أن توحّد بين الناس من مختلف الخلفيات الثقافية والسياسية والدينية والفلسفية. فثمة مجموعة قيم إنسانية مشتركة بين كل الفضاءات الثقافية والدينية في العالم، ينبغي استثمارها والتركيز عليها؛ لتكريس وحدة الإنسانية ووحدة «الجوهر الإنساني».

إننا نقول: إن شيئاً ما له قيمة مشتركة عندما يكون له القيمة نفسها عند الجميع، أو معظم الناس. والقول هذا يعني شيئين اثنين:

- يمكن لشيء ما أن يكون له قيمة عالمية عندما يرى الجميع أنه ذو قيمة، أو على الأقل يمتلكون سبباً للاعتقاد بأنه يمتلك قيمة ما. وبهذا المعنى؛ فالقيم المشتركة هي القيم التي تكون لعدد كبير من البشر في حالات وأماكن مختلفة لها المعنى نفسه تقريباً من حيث التقدير والرفعة والاحترام، ويبدو ذلك في أقوالهم وسلوكهم.
- ويمكن لشيء ما أن يكون ذا قيمة مشتركة عند جميع الناس عندما يمتلكون الاعتقاد أو المسوغ الكافي بأنه يستحق هذه القيمة[1].

إن قيماً مثل: العدل، المساواة، الحرية، التعاون، المحبة، التواضع، رفض الظلم، رفض العنف... هي جزء من إنسانية كل إنسان؛ ولذلك فالجوهر الإنساني حاضر في كل التقاليد الثقافية والدينية لكل الشعوب عبر التاريخ الطويل للإنسانية[2].

1 ـ رضوان زيادة، كيفن جيه أوتول، صراع القيم بين الإسلام والغرب، دار الفكر، دمشق، ط، الأولى، 2010م، 47 - 48.

2 ـ في كتابه الجديد (النور يأتي من الغرب) قام داريوش شايغان بمقارنة بين مجموعة من التقاليد الصوفية من مختلف الفضاءات الثقافية: المعلم إيكار من القرن الثالث عشر، ابن عربي من =

والقول بقيم مشتركة أو إنسانية لا يعني أن المشتركات يجب أن تكون شاملة، وتسري مقتضياتها على سائر الناس في كل الظروف والأحوال؛ بل إن التأكيد هذا يعني أن هناك مشتركات أو عموميات كثيرة فيما بيننا، وأنه يمكن البناء عليها للتخفيف من فظاعات هذا العالم، وصنع حياة أفضل لأولئك الذين يأتون بعدنا.

في تقرير أعدته لجنة «إدارة المجتمع العالمي» التابعة للأمم المتحدة، بعنوان: «جيران في عالم واحد»[1]، وأملاً في عيش أفضل في جوار عالمي؛ جاء التأكيد على القيم المشتركة التي ينبغي أن توجه العالم والأخلاقيات التي تستلهما الحياة في إطار الجوار العالمي، وأن الالتزام بالمشتركات القيمية، وتوخّي أرفع صفات السلوك بين البشر استراتيجية مثلى لإدارة أحسن لشؤون عالمنا المعاصر.

القول بقيم مشتركة أو إنسانية لا يعني أن المشتركات يجب أن تكون شاملة، وتسري مقتضياتها على سائر الناس في كل الظروف والأحوال؛ بل إن التأكيد هذا يعني أن هناك مشتركات أو عموميات كثيرة فيما بيننا

ويؤكد التقرير على ضرورة تمثّل قيم «حسن الجوار»، المنسجمة تماماً مع ما جاء في ديباجة ميثاق الأمم المتحدة، التي أعلنت تصميم شعوب العالم على «أن نأخذ أنفسنا بالتسامح، وأن نعيش معاً في سلام وحسن جوار». ولم يكن الذين صاغوا هذه الكلمات أول من وضعوا رؤية لعالم واحد يكون كل الناس فيه جيراناً؛ فلقد استلهمت عصبة الأمم مثلاً أعلى مشابهاً لهذا في مطلع القرن الحالي. وقبل ذلك بزمن طويل، تحدّث الفلاسفة والمفكّرون الدينيون والسياسيون عن الأسرة الإنسانية.

= القرن الثاني عشر، الهندي امكاراشاريا من القرن الرابع، والصينيان شوانغ تسو ولاوتسو قبل التاريخ الميلادي، وتوصل إلى وجود انسجام وتطابق بنيوي فيما يخص رؤاهم للإنسان والعالم، وذلك على الرغم من التباعد الزمني والمكاني فيما بينهم.

1 - جيران في عالم واحد، نص تقرير لجنة «إدارة شؤون المجتمع العالمي»، ترجمة مجموعة من المترجمين، مراجعة، عبد السلام رضوان، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 201، ط، الأولى، 1416هـ/1995م.

يشـير التقرير إلى أن الالتزام بالمشـتركات القيمية يتجسـد بالنسبة لكثير مـن الثقافات في مدلـول العبـارة القائلة بأن يكون الإنسـان «جاراً طيباً»، ومـع تطور التنظيم الاجتماعي الإنسـاني ليشـمل معرفـة جماعات إنسانية أوسع نطاقاً، اتسع نطاق الواجبات التي يفرضها الجوار[1].

الواقع أنه في إطار الجوار العالمـي، يتعيّن على المواطنين أن يتعاونوا لخدمة أغـراض كثيرة: للمحافظة على السـلم والنظام وتوسـيع النشـاط الاقتصادي، والتصدّي للتلوث، ووقف التغير المناخي أو الحد منه، ومكافحة الأمراض الوبائية، وكبح جماح انتشـار الأسـلحة، ومنع التصحر، والحفاظ على الوراثي وتنوّع الأنـواع، وردع الإرهابيين، وتفـادي المجاعات، والتغلب على الركود الاقتصادي، واقتسام الموارد الشحيحة، واعتقال المتاجرين في المخدرات، وما إلى ذلك. إن المسائل التي تتطلب من الدول القومية توحيد جهودها ـ وبعبارة أخرى: تدعو إلى اتخاذ إجراءات فعالة على مستوى الجوار العالمي ـ في تزايد مستمر.

إن ما يحـدث على مسـافات بعيـدة أصبح الآن أكثـر أهمية؛ فاسـتخدام الإيروسـول في أوروبا يمكن أن يسـبّب سـرطانات الجلد في أمريكا الجنوبية، ونقص المحاصيل في روسـيا يمكن أن يعنـي المزيد من الجـوع في أفريقيا، والركـود الاقتصادي في أميركا الشـمالية يمكن أن يدمر الوظائف في آسـيا، والصراعات في أفريقيا يمكن أن تجلـب المزيد من طالبي اللجوء إلى أوروبا، كما أن الأوضاع المتوترة بالشرق الأوسط يمكن أن تكون سبباً في حرب عالمية ثالثة، والصعوبات الاقتصادية في أوروبا الشـرقية يمكـن أن تؤدي إلى كراهية الأجانب في أوروبا الغربية. وللأسباب نفسها، فإن النشاط الاقتصادي في شرق آسـيا يمكن أن يحمـي العمالة في مناطـق عديدة من العالـم، ويمكن لإعادة الهيكلـة الصناعية في البلـدان المتقدمة أن تخفّف من حـدة الفقر في الدول الفقيـرة... لقد أدى اختصار المسـافات، وزيـادة الصلات، وتعميـق الاعتماد المتبادل ـ أدت جميعاً مع تفاعلاتها ـ إلى تحول العالم إلى جوار بشري واحد.

1 ـ المرجع السابق، ص 61.

ولكي نكــون جيراناً عالميين؛ فإننا نحتاج إلــى طرق جديدة لكي يفهم بعضنا بعضاً، وإلى طرق جديدة للحياة أيضاً. إن على الناس أن يروا بعيون جديــدة، ويفهموا بعقول جديدة، قبل أن يتمكنــوا بحق من التحول إلى طرق جديدة للمعيشة. وذلك هو الســبب في ضرورة أن تكون المشتركات القيمية هي حجر الزاوية في إدارة الجوار العالمي.

إن بمقدور هذه المشتركات القيمية أن تساعد الناس على إيجاد حلول فعالة وناجعة للعديد من المشكلات التي تهدد الأمن والسلم العالميين، وأن تساعدهم على أن يتصرفوا في ضوء مصالح متبادلة أوسع، وأبعد مدى.

تتصل بمبدأ «حسن الجوار» ـ الذي جاء التأكيد عليه في التقرير الســابق ـ مشــتركاتٌ قيمية معتبرة، نعتقد أن الالتزام المشــترك بها يمكن أن يوحّد بين النــاس من مختلــف الخلفيــات الثقافية والسياســية والدينية والفلســفية، مما يســهم فــي تعزيز الجهود المبذولــة من أجــل تحســين إدارة شــؤون المجتمع العالمي من أجل مواجهة التحديــات المعاصرة. كما أن بمقدور هذه المشتركات القيمية أن تساعد الناس على إيجاد حلول فعالة وناجعة للعديد من المشكلات التي تهدد الأمن والســلم العالميين، وأن تســاعدهم على أن يتصرفوا في ضوء مصالح متبادلة أوسع، وأبعد مدى.

هذه القيم جميعاً تهيئ الأســاس لتحويل جوارنــا العالمي إلى مجتمع عالمــي أخلاقي يرتبــط فيه النــاس بما هو أكثــر من روابــط المصلحة، فجميعها نابعة ـ بطريقة أو أخرى ـ من المطلب الذي ينســجم مع التعاليم الدينية في جميع أنحاء العالم؛ مطلب «المعاملة الإنســانية»، وصيغته هي: «ينبغــي أن يُعامــل كل إنســان معاملة إنســانية»، والمقصــود بذلك حفظ كرامته، فلا يحرم من ثابــت حقوقه، ولا ينزل منزلة الوســيلة لغيره، ولا تُقَدّر ذاته على أساس العِرق أو الجنس أو السن أو اللون أو الدين أو اللغة أو الموطن أو المجتمع، ويتصل بهذا المطلب مبدأ أساسي أخذت به الأديان عرف باسم «القاعدة الذهبية»، وصيغته السالبة هي: «لا تعامل غيرك بما لا تريــد أن تعامَل به»، وصيغتــه الموجبة هي: «عامِلْ غيــرَك بما تريد أن تُعامَل به»، والراجح أنه لا دين من الأديان الكبرى يخلو من صورة أو صور

خاصــة لهذه القاعــدة، ونجد لها صــوراً متعددة في الإســلام تفردت عن غيرهــا بجعل إيمان المرء نفســه موقوفاً علــى هذه المعاملــة، نذكر منها الأحاديث الشــريفة التي وردت في شــعب الإيمان: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفســه**»[1]؛ وواضح أن هذه القاعدة تقضي باجتناب كل أشكال الظلم التي تنتج عن الأَثَرَةِ والأنانية في مختلف مجالات الحياة. وهذا هو الشــيء الجوهري الذي تَمثّل في الدعوة الــواردة في ميثاق الأمم المتحدة للاعتــراف «بالكرامة المتأصلة لكافة أعضاء الأســرة الإنســانية وحقوقهم المتساوية غير المنقوصة»[2].

بناءً على ما سبق؛ نستطيع تحديد معالم استراتيجية المشتركات القيمية فيما يلي:

أ ـ الالتزام بثقافة المسالمة واحترام الحياة، ويقضي هذا الالتزام بحل الخلافات بالطرق السلمية في إطار من العدل، مع السعي إلى تربية النشء على هذه الروح المسالمة؛ إذ لا بقاء للإنسانية من غير سلام عالمي، كما يقتضي باجتناب تعذيب الإنسان، جســمانياً أو نفسانياً، وبالأَولى قتله ما لم يضر بحقوق غيره، ويتطلّب هذا الالتزام ـ من جهة أخرى ـ العناية بالأسباب الطبيعيــة للحياة التي يضمها كوكب الأرض؛ نظــراً لأن الموجودات في هذا الكون متعلّقة بعضها ببعض، ولأن الصلة المطلوبة بالطبيعة ليست هي الفعل فيها، وإنما التفاعل معها[3].

ب ـ الالتزام بثقافة التضامن والنظام الاقتصادي العادل والمســاواة؛ ويقوم هــذا الالتزام الثاني علــى اعتبار الملكية الخاصة حقّاً يســتلزم أداء واجبات إزاء الآخرين، بحيث يصير تدبير المصالح المادية الخاصة مراعياً لحاجات المجتمع، كما يقوم على تنشــئة الجيل الصاعــد على قيم الرحمة

1 ـ أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

2 ـ طه عبد الرحمن، ســؤال العمل: بحث عن الأصــول العملية في الفكر والعلــم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط، الأولى، 2012م، ص116.

3 ـ المرجع السابق، ص117.

والرأفة والعنايــة بالضعفاء والفقــراء، بل ينبغي ـ بموجب هــذا الالتزام ـ تجاوز نطاق التكافل المتمثّل في الإعانات الظرفية للأفراد المحتاجين، وفي مشــاريع المســاعدات لبعض المجتمعــات الفقيرة، إلى مســتوى إعادة بناء مؤسسات الاقتصاد العالمي بما يحد من الاستهلاك الجامح والربح الفاحش، وينقل الســلطة الاقتصادية من التنافس على السيطرة إلى خدمة الإنسانية؛ تحقيقاً للعدل بين الأمم؛ فلا سلام عالمياً بغير عدالة عالمية[1].

كذلك يقتضي الأمر احترام المســاواة أيضاً فــي العلاقات بين الأجيال الحاضرة والمقبلة، إن قيمة المساواة بين الأجيال تشكّل الأساس لاستراتيجية التنمية المســتديمة، التي تهــدف إلى ضمان ألا يضرّ التقدّم الاقتصادي بفــرص الأجيال المقبلة من خلال اســتنزاف رصيــد رأس المال الطبيعي الذي يعمل على اســتمرار الحياة الإنســانية على كوكــب الأرض. وتتطلّــب المســاواة مــن جميع المجتمعات أن تنتهج هذ الاستراتيجية.

إن قيمة المساواة بين الأجيال تشكّل الأساس لاستراتيجية التنمية المستديمة، التي تهدف إلى ضمان ألا يضرّ التقدّم الاقتصادي بفرص الأجيال المقبلة من خلال استنزاف رصيد رأس المال الطبيعي الذي يعمل على استمرار الحياة الإنسانية على كوكب الأرض.

ج ـ الالتزام بثقافة التســامح والاحترام المتبادل وبالصدق فــي الحياة؛ والمراد بهذا الالتــزام الثالث الأخيــر هو أن يتــرك ممثلو الديانــات تحقيــر العقائد المخالفة وتشــويه مقاصدهــا، واختلاق أســباب الحقد والتعصب والعداء ضد معتنقيها، كما أن واجب غيرهم من رجال الإعلام وأهل الفن والكتّاب والعلماء ورجال السياسة والحكام أن يجتنبوا كل أشكال التحريف والتضليل والنفاق والاحتيــال والانتهاز والكذب فيما يقولون ويكتبون؛ هذا مع العمل على تربية الناشــئة على الصدق في الفكــر والقول والفعل؛ إذ لا عدالة عالمية بغير تصادق في الأقوال والأفعال بين بني البشر[2].

1 ـ المرجع السابق، ص118.

2 ـ المرجع السابق نفسه.

إن التسامح أمر لا غنى عنه للعلاقات السلمية في أي مجتمع، وعندما يتحول التسامح إلى احترام متبادل ـ وهي صفة أكثر إيجابية ـ فإن نوعية العلاقات ترتقي بشكل واضح. ومن ثم فإن الاحترام المتبادل يشكل أساساً لإقامة مجتمع تعددي ـ وهو نوع المجتمعات الذي يمثّله الجوار العالمي ـ لا يتميز بالاستقرار فحسب؛ بل باحترام تنوعه الذي يغنيه.

تجدر الإشارة إلى أن استراتيجية المشتركات القيمية التي وصفناها الآن؛ لا يمكن تفعيلها إلا إذا تمت ممارستها على نحو مسؤول، كما تتوقّف فاعليتها على قدرة الناس والحكومات على تجاوز المصالح الذاتية الضيقة، وعلى تقبلهم لحقيقة أن مصالح الإنسانية بوجه عام سيتم خدمتها على أفضل وجه من خلال قبول مجموعة الحقوق والمسؤوليات المشتركة. ومن شأن استراتيجية المشتركات القيمية التي وصفناها أن تساعد على إضفاء الطابع الإنساني على العلاقات بين مكونات الأسرة الإنسانية.

وينبغي التشديد هاهنا على أن تأسيس بُعْد أخلاقي لإدارة شؤون مجتمعنا العالمي يتطلب نهجاً ثلاثياً ـ يُكسب استراتيجية المشتركات القيمية فعالية ـ يتضمّن ما يلي:

- إعلان وتشجيع الالتزام بالقيم الأساسية المتعلّقة بنوعية الحياة والعلاقات، وتعزيز الإحساس بالمسؤولية المشتركة إزاء الجوار العالمي.
- التعبير عن هذه القيم من خلال الأسس الأخلاقية لمجتمع مدني عالمي، والقائمة على الحقوق والمسؤوليات المحددة التي تشارك فيها كل القوى الفاعلة: العامة والخاصة، الجماعية والفردية.
- تجسيد هذه الأخلاقيات في النظام المتطوّر للمعايير الدولية[1].

والملاحظ أن هناك عزماً ناشئاً عن تحديد وتوضيح هذه القيم المشتركة؛ إذ سعى المجتمع الدولي، والمنظمات الإقليمية والدولية لبلورة مفهوم «المشتركات القيمية»، وبذل في هذا الشأن العديد من الجهود

1 ـ جيران في عالم واحد، م. س، ص 68.

والمبادرات. ولئن تأخر وضع مصطلح «الأخلاق العالمية» إلى سنة 1990م، فقد ظهرت بوادر التفكير في «أخلاق تجمع أمم العالم» في إطار النشاط الحواري الذي مارسته مختلف التيارات الدينية منذ قرن ونيف؛ أي منذ أن تم عقد المؤتمر العالمي الأول للأديان في شيكاغو، والذي عرف فيما بعد باسم «برلمان أديان العالم».

وقد تجلّت مظاهر هذا النشاط في إقامة حوارات دينية ذات مواضيع ومستويات وأهداف مختلفة في شتى بلدان العالم كما تجلت في إنشاء مؤسسات ومنظمات متعددة... كما تجلى ذلك في توالي صدور تقارير ونداءات تدخل في هذا المضمار.

إن التسامح أمر لا غنى عنه للعلاقات السلمية في أي مجتمع، وعندما يتحول التسامح إلى احترام متبادل - وهي صفة أكثر إيجابية - فإن نوعية العلاقات ترتقي بشكل واضح

إن هذه الجهود تعبير عن الوعي الحاصل لدى المجتمع الدولي بأهمية المشتركات القيمية كاستراتيجية فعالة؛ للانتقال من الوضع العالمي الراهن إلى وضع أفضل تحفظ فيه حقوق الناس، وتصان فيه كرامتهم؛ والمراد هو أنه لا يمكن بناء نظام عالمي جديد يخرجنا من هذه الأزمة المتعددة من دون مشتركات قيمية تأخذ بها كل الأمم، ولما كانت الإنسانية في هذا العالم بمثابة الأسرة الواحدة، صار الجميع يتحمّل المسؤولية في بناء هذا النظام العالمي الجديد، وتقوم مسؤولية الجميع في أن يتفقوا على مجموعة من القيم الملزمة والمعايير الثابتة والسلوكات الأساسية، بحيث يكون هذا الاتفاق بمنزلة الإجماع الأدنى الضروري لقيام «أخلاق عالمية» تحترم الجوار العالمي.

ثانياً: في استراتيجية دار الإسلام

من المهم أن نؤكد أن مسألة التقسيم للمعمورة - منظوراً إليها في سياق رؤى العالم، وفي سياق منظور حضاري أرحب - هي عملية من طبائع الأمور، فما دام هناك «ذات» و«آخر»، و«ذات» و«غير»، وعلاقات صداقة

وعداء تشكّل جوهر السياسة؛ فإن التقسيم الفطري يقوم في كل عصر على ثلاث دور متباينة كشيء تفرضه طبيعة الأمر، فدائماً تَعُدّ كلُّ أمة دارَها دارَ سِلْم وأمن، بينما تُدخل مع الآخرين في علاقات تتفاوت بين حالة حرب معها، وأخرى لا تخضع لسيادتها، ومن ثم فهي دار حرب وعداء، وبين هذا وذاك يُستثنى من هؤلاء الداخلون معها في صلح أو هدنة أو عهد أو صداقة، والمتابعة التاريخية تؤكد هذا الأمر بحيث لا تَقبل لتلك القاعدة نقضاً[1].

ووفق هذا التصور؛ فإنه من البدهي أن تكون هناك علاقات بين ما اصطلح على تسميته دار الإسلام من البلاد وبين غيرها من الدور والبلاد، وحتى لو كانت دار الإسلام لا تعترف اعترافاً شرعياً بغيرها من الدور؛ فإن هذا لم يشكل مانعاً من الاعتراف الواقعي بها، بوصفها كيانات موجودة فعلاً، وتباشر سلطانها واختصاصاتها الإقليمية على رعاياها، بل وحتى على رعايا دار الإسلام المستأمنين فيها، كما تنشأ بينها وبين دار الإسلام علاقات متنوعة من السلم والحرب، والتعاهد والتصالح والمسالمة والتجارة بحكم هذا الوجود، الأمر الذي يفرض وجود قواعد معينة تنظّمها على نحو ما وتعد ملزمة ـ على الأقل ـ بالنسبة إلى دار الإسلام.

المشتركات القيمية الحاكمة لعلاقة دار الإسلام بغيرها من الأمم والحضارات

إن دار الإسلام تعيش في محيط دولي تتعايش فيه مع دول وأمم أخرى، تتشابك معها في المصالح أو تتقاطع، وتكون لها علاقات مؤثرة ومتأثرة، مما يفرض أن يكون لها تصوراتها ومفاهيمها وأحكامها لتنظيم هذه العلاقات. وفي هذا الإطار جاءت الشريعة الإسلامية بالعديد من القواعد والقيم التي يجب على دار الإسلام أن تراعيها في تعاملاتها مع الدول الأخرى.

1 ـ سيف الدين عبد الفتاح، العولمة والإسلام رؤيتان للعالم، دار الفكر، دمشق، ط، الأولى، 1430هـ/2009م، ص، 122 - 123.

ولما كان من مهمات دار الإسلام نشر السلام العالمي، ولكي يجد هذا السلام طريقه إلى التطبيق وفقاً للرؤية السابقة؛ فإن جميع السياسات والمواقف والقرارات والإجراءات التي تتخذها دار الإسلام على المستوى الدولي يجب أن تأتي في إطار الالتزام بمنظومة القيم التي تضمن الوصول إلى هدف السلام العالمي، ويمكن تطبيقها على هذه السياسة أو على ذلك الموقف أو القرار بطريقة تجريبية؛ لمعرفة ما إذا كان العمل يصب في الاتجاه الصحيح أم لا، فليس كل سلام يمكن تحقيقه هو سلام مقبول في النظرية الإسلامية، ما لم تأت جميع خطواته متفقة مع رؤية العالم من المنظور الإسلامي، ومنضبطة وفقاً لقيم هذا المنظور ومبادئه العليا.

إن دار الإسلام تعيش في محيط دولي تتعايش فيه مع دول وأمم أخرى، تتشابك معها في المصالح أو تتقاطع، وتكون لها علاقات مؤثرة ومتأثرة، مما يفرض أن يكون لها تصوراتها ومفاهيمها وأحكامها لتنظيم هذه العلاقات

إن السلام الإسلامي يمر عبر نظام العلاقات الدولية، تحكمه قيم العدل والمساواة والحرية، وتحوطه أخلاقيات الوفاء بالعهود والأمانة، وتقوده مبادئ التعاون والاحترام...وهذه القيم مترتبة ـ جميعها ـ على قيمة كبرى ومتفردة هي «الوحدانية»[1]. فالمنطلق الأساسي الأول ـ المستوعب لكل القيم الأخلاقية ـ لعلاقة دار الإسلام بغيرها، ولرؤية القرآن للعالم، تنبع من أصل عقدي وإيماني هو «التوحيد»؛ «وهذا المنطلق ـ كما يدل عليه مصطلحه، وتنطق به كلمة الشهادة، ويوضحه القرآن الكريم والسُنَّة النبوية المطهرة ـ يقيم العقل المسلم والفكر المسلم، والمنهجية الإسلامية على فرضية الحق أساساً ومداراً ومآلاً لكل الكون والكائنات»[2].

فالتوحيد هو جوهر الإسلام، وهو القاسم المشترك بين مختلف الأديان؛

1 ـ رضوان السيد، منظومة القيم والحياة الأخلاقية في الرؤية الإسلامية، مجلة التسامح، وزارة الأوقاف، سلطنة عُمان، السنة السابعة، خريف، 1430هـ/2009م، العدد الثامن والعشرون، ص13.

2 ـ عبد الحميد أبو سليمان، أزمة العقل المسلم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى 1412هـ/1991م، ص127.

إذ عليه أجمعت شرائع السماء، وتوحّدت دعوات الرسل والأنبياء ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: 32]، ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 92].

فمما «لا شك فيه أن جوهر الحضارة الإسلامية هو الإسلام، وأن جوهر الإسلام هو التوحيد... والتوحيد بالعبارة البسيطة المتوارثة هو الاعتقاد والشهادة (أن لا إله إلا الله)، وهذا القول ـ بصيغة الحصر والقصر ـ يحمل أعظم المعاني وأغناها في الإسلام قاطبة، وقد تتكثّف في جملة واحدة ثقافة كاملة أو حضارة كاملة أو تاريخ بأجمعه. وهذا بالتأكيد هو ما نجده في «الكلمة» أو «الشهادة» في الإسلام، فكل ما في الإسلام من تنوع وغنى وتاريخ وثقافة ومعرفة وحكمة وحضارة يجتمع في هذه الجملة البالغة القصر «لا إله إلا الله[1]».

وعليه فالتوحيد ـ من حيث هو إفراد لله بالوحدانية ـ «هو سبيل هوية الأمة، ومن ثم توحيد موقفها الفكري في العقائد والشرائع، في الثوابت والأصول والأركان... وتبعاً لذلك وانطلاقاً منه [فهو] السبيل لتوحيد موقفها الفلسفي والمعرفي في خضمّ الصراعات والتحديات الحضارية التي أحاطت وتحيط بها، منذ ظهور الإسلام وحتى عصرنا الراهن... وأيضاً السبيل لتوحيد موقفها العملي في معركة النهضة الحضارية التي هي طوق نجاتها من التخلف الموروث، والذي يكرسه التغريب بالمسخ والنسخ والتشويه لهويتها الإسلامية»[2].

كما «يفيد التوحيد أن المؤمنين هم في الحقيقة جماعة أخوّة واحدة... والأمة نظام كوني يشمل غير المؤمنين من الناس، وهو نظام سلام إسلامي، منفتح أبداً على جميع الأفراد والجماعات الذين يؤمنون بمبدأ الإقناع والاقتناع بالحقيقة، ويبحثون عن نظام عالمي تكون فيه الأفكار والبضائع والثروات والناس أحراراً في الحركة والانتقال»[3]؛ ذلك أن رجل التوحيد «في

1 ـ إسماعيل راجي الفاروقي، أطلس الحضارة الإسلامية، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط، الأولى، 1419هـ/1998م، ص 131.

2 ـ محمد عمارة، معالم المنهج الإسلامي، الأزهر الشريف، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار الأمان، الرباط، د. ت، ص 33.

3 ـ المرجع السابق، ص 144 - 145.

علاقاته بغيره يتحرك وينفعل معهم... لكي يحدث في غيره إيجابياً؛ فيقلب أوضاع الغير من جوع إلى شبَع، ومن جهل إلى علم، ومن عدم أمن إلى طمأنينة، ومن بشاعة إلى جمال»[1]، في نكران تام للذات، وابتعاد كامل عن كل أنانية بغيضة أو استعلاء مقيت؛ لأن نفسه معدّلة بالتوحيد، الذي يعدّ «قاعدة العلاج الصحيح من أمراض الهوى والعصبيات والاستكبار والإفساد. والجواب الصحيح على ما يلقاه العقل الإنساني رغم كل إنجازاته المادية من عناء وعنت وحيرة وفشل في تحقيق السلام والأمن والطمأنينة للنفوس والمجتمعات والأمم»[2].

جماعة التوحيد هي جماعة التعارف والقسط والرحمة، والتي كان اتخاذها للهجرة النبوية 622م تأريخاً لها عَلَمًا على ظهور التنظيم السياسي، فتحاور وتجاور في تجربتها التاريخية الاجتماعُ الإنساني مع الدولة

وجماعة التوحيد هي «جماعة التعارف والقسط والرحمة، والتي كان اتخاذها للهجرة النبوية 622م تأريخاً لها عَلَمًا على ظهور التنظيم السياسي، فتحاور وتجاور في تجربتها التاريخية الاجتماعُ الإنساني مع الدولة. وقد كان أول الأنظمة ظهوراً في التعامل مع غير المسلمين هو نظام أهل الذمة الذي شمل المسيحيين واليهود في البداية استناداً للقرآن، ولتجربة الرسول ﷺ والمسلمين في مجتمع الجزيرة العربية. وقد تجاوز نظام أهل ذمة المسلمين التعارف والاعتراف، إلى ما يقرب من الأخوة، بحسب ما نصَّ عليه القرآن. وقد عَدّ الفقهاءُ في كتبهم أهلَ الذمة من أهل دار الإسلام، وضمنت الدولة لهم الحرية الدينية المتضمِّنةَ حريةَ العبادة والتعليم الديني، والتنظيم الديني، وحرية الحركة الاجتماعية والاقتصادية»[3].

1 ـ إسماعيل راجي الفاروقي، نحن والغرب، دار الزيتونة، تونس ط، الأولى، 1409هـ/1989م، ص18.

2 ـ عبد الحميد أبو سليمان، أزمة العقل المسلم، م. س، ص128 بتصرف يسير.

3 ـ رضوان السيد، التعدد والتسامح والاعتراف: نظرة في الثوابت والفهم والتجربة التاريخية، مجلة التسامح، السنة الثالثة، العدد الثاني عشر، خريف، 1426هـ/2005م، ص14.

وهذا الفهم السلمي التعارفي لطبيعة علاقة جماعة المسلمين بغيرها من الأمم؛ يقوم وينبني على ست ثوابت قيمية تدعو كلها إلى التعايش السلمي والتواصل الفعلي والتعاون العملي، بين دار الإسلام وغيرها من الأمم، والقيم الست التي تحكم العلائق بالأمم والحضارات تتمثّل في: المساواة والكرامة والرحمة والعدالة والتعارف والخير العام:

المساواة؛ التي تستند إلى حقيقة «النفس الواحدة» التي خلقها الله، والتي تعني المساواة بين الناس من سائر الوجوه، وهذا يعني أنهم جميعاً مخلوقات لله، وهذا يقتضي من جانب المؤمن ـ نظراً وعملاً ـ الابتعاد عن التمييز، والابتعاد عن التكبر، وعدّ هذين الأمرين من الكبائر الفظيعة، التي قد توصل إلى الكفر والفساد والإفساد إن صارت قيماً أو مبادئ في النظر، وليس مجرد سلوكات مخطئة[1].

وفي إقرار القرآن لمبدأ المساواة بهذا الشكل إلغاء لكل عوامل التفرقة بين الناس؛ فاللون والجنس والمعتقد والحظوة الاجتماعية لا مكان لها في منطق القرآن، ولا تؤثر في إنسانية الإنسان، لهذا يعد مبدأ المساواة من أهم المبادئ القرآنية التي تقوم عليها النظرية الإسلامية في مجال العلاقة مع الآخر، فبموجب هذا المبدأ يتوجّب على المسلم التقيد بضوابط وقيم القرآن السامية في تعامله مع غيره من أتباع الأديان الأخرى، فلا يحقّره ولا يعتدي عليه في ماله أو بدنه أو عرضه، ولا يظلمه قال ﷺ: «**ألا من ظلم معاهداً، أو انتقصه حقاً، أو كلّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه [خصمه] يوم القيامة**»[2].

إن أزمة العالم الناجمة عن غياب السلام، لا يمكن تجاوزها من دون إقرار مبدأ المساواة كما حدده القرآن الكريم، الذي بموجبه تنمحي كل الفوارق العرقية والدينية واللغوية والجغرافية... ويصبح الاختلاف والتنوع

1 ـ رضوان السيد، منظومة القيم والحياة الأخلاقية في الرؤية الإسلامية، م. س، ص 14.

2 ـ سنن أبي داود، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات، رقم الحديث، 3052.

سبباً للوحدة الإنسانية، ومدعاة لتحقيق الاتصال والتعارف والتآلف بين البشر جميعاً، وليس سبباً في النزاع والتقاتل.

فالمساواة في القرآن حق لازم للناس بغض النظر عن دينهم أو جنسهم أو لونهم... وبهذا لا يسمح القرآن بتفوق جنس على جنس أو استعلاء شعب على شعب، كما هو الحال في العهد القديم الذي أثبت لليهود من بني اسرائيل تميّزهم عن باقي شعوب العالم، فغذى شعورهم بالتفوّق العرقي؛ لأنهم شعب الله المقدس والمختار؛ إذ نقرأ في سفر التثنية: «لأنك شعب مقدس للرب إلهك»[1]. وتحوّل هذا الشعور بالتفوّق إلى درجة جعلت ظنهم يوحي لهم بأنهم خُلقوا من عنصر الله، وأن بقية الشعوب الأخرى مخلوقات حيوانية سخرها الله لخدمتهم، فانتفى نتيجة ذلك أخذهم بمبدأ المساواة في تعاملهم مع الآخر الأجنبي عنهم، فأباحوا لأنفسهم قتله، وطرده، واحتقاره، وظلمه، بحيث نجد في كثير من النصوص التوراتية تعقيباً بالقول: «والأجنبي الذي يقترب يُقتل»[2]؛ ونقرأ أيضاً: «متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها وطرد شعوباً كثيرة من أمامك... لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم، ولا تصاهرهم»[3].

إن أزمة العالم الناجمة عن غياب السلام، لا يمكن تجاوزها من دون إقرار مبدأ المساواة كما حدده القرآن الكريم، الذي بموجبه تنمحي كل الفوارق العرقية والدينية واللغوية والجغرافية...

الكرامة:

وتتصل قيمة الكرامة بقيمة المساواة بشكل وثيق؛ ذلك أن الكرامة ـ كما يعرضها القرآن ـ هي قيمة وجودية، تتعلّق بفطرة الإنسان واختصاص الله له بالعقل والاستخلاف في العالم، وتسخير إمكانيات هذا العالم له،

1 ـ سفر التثنية، الإصحاح 14، الفقرة 2.
2 ـ سفر العدد، الإصحاح 3، الفقرة 10.
3 ـ سفر التثنية، الإصحاح 7، الفقرة 1 - 3.

وإقداره على الولاية فيه[1]. لقد كرم الله تعالى الإنسان، وعدّه الكائن المفضل على سائر المخلوقات: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70]. فالله ﷻ كرّم بني آدم كلهم، ورزقهم من الطيبات وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلاً. و«التكريم هنا هو تكريم مطلق المعنى، يشمل البشر كافة في الماضي والحاضر والمستقبل، ويمتد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فالإنسان في نظر القرآن مكرّم، بصرف النظر عن أصله ودينه وعقيدته، مركزه وقيمته في الهيئة الاجتماعية، فقد خلقه الله مكرماً، ولا يملك أحد أن يجرّده من كرامته التي أودعها في جبلته وجعلها من فطرته وطبيعته، يستوي في ذلك المسلم وغير المسلم من أهل الأديان الأخرى، فالكرامة البشرية حق مشاع يتمتع به الجميع من دون استثناء»[2].

فالكرامة الإنسانية لكل إنسان، ولا تفاضل بين الناس إلا بالتقوى؛ فالأبيض والأسود عنده سواء. ويروى في ذلك أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ عيّر آخر بسواد أمه فقال له: يا ابن السوداء، فغضب النبي ﷺ. وقال: «**أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟! إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ**»[3]، ولا فرق بين دين ودين في تكريم الإنسان حيّاً أو ميتاً؛ يروى أنه مرت جنازة يهودي فوقف لها النبي ﷺ فقال له بعض أصحابه: إنها جنازة يهودي، فقال النبي ﷺ: **أليست نفساً؟**[4]. مما يؤكد أن الكرامة الانسانية لكل إنسان، ولا تفاضل بين الناس في ذلك، فالتكريم تكريم مطلق المعنى يشمل البشر كافة.

---

1 ـ رضوان السيد، القرآن والتاريخ: الرؤية القرآنية في الأمم والحضارات، مجلة التفاهم، السنة التاسعة، 1432هـ/2011م، العدد الثاني والثلاثون، ص16

2 ـ عبد العزيز عثمان التويجري، الحوار من أجل التعايش، دار الشروق، ط، الأولى، 1998/1419م، ص126 - 127 بتصرف يسير.

3 ـ صحيح البخاري، كتاب الإيمان، بَاب المَعاصِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ وَلَا يُكَفَّرُ صَاحِبُهَا بِارْتِكَابِهَا إِلَّا بالشِّرْك، رقم الحديث 29.

4 ـ صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي، رقم الحديث 1250.

الرحمة:

وفي القرآن الكريم أن الله سبحانه كتب على نفسه الرحمة، وجعلها القيمة العليا في تعامل البشر بعضهم مع بعض، وهذا يعني أن الرحمة والنعمة من جانب الله تجاه الإنسان تنعكسان علاقات مودة ورحمة وسكينة في التعامل بين البشر، أو ينبغي أن يكون الأمر كذلك. بل إن القرآن يعد النبي والإسلام رحمة للناس ينبغي أن تتجلّى في حياتهم جميعاً[1]: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107].

الإنسان في نظر القرآن مكرّم، بصرف النظر عن أصله ودينه وعقيدته، مركزه وقيمته في الهيئة الاجتماعية، فقد خلقه الله مكرماً، ولا يملك أحد أن يجرّده من كرامته التي أودعها في جبلته وجعلها من فطرته وطبيعته

لذا يجعل القرآن الكريم «الرحمة» هي الصبغة العامة في تعامل أهل دار الإسلام مع الآخر، فالله ﷻ يؤكد دائماً في قرآنه وجوب اصطباغ أسلوب التعامل مع الآخر بالرحمة الإلهية، فـ«الأصل أن الموجودات على اختلافها يرحم بعضها بعضاً؛ تخلّقاً باسم الرحمن من أسمائه تعالى»[2]. ولأن الله ﷻ رب المخلوقات جميعها فرحمته شاملة لكل الناس؛ إذ لا تخص أناساً دون سواهم، بل «إنه ما من شيء إلا وهو أثر من آثار الرحمة الإلهية»[3]، ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: 156]، ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غافر: 7]، ﴿فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ﴾ [الأنعام: 147]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحج: 65]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام: 54].

إن الرحمة ـ بحسب منطوق الآيات أعلاه ـ «ليست مطلوبة المسلمين

1 ـ رضوان السيد، القرآن والتاريخ: الرؤية القرآنية في الأمم والحضارات، م. س، ص17

2 ـ طه عبد الرحمن، روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط، الأولى، 2006م، ص244.

3 ـ المرجع السابق، ص246.

وحدهم ولكنها للآدميين جميعـاً؛ «**ارحموا أهل الارض يرحمكم من في السماء**»[1]، بل إنها مطلوبة لـ«كل ذات كبد رطبة»[2].

التعارف:

وتتصل بقيمة الرحمة قيمة التعارف؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: 13]. وإذ كان المفسرون المسلمون قديماً، والمفكرون حديثاً ما ألحقوا التعارف بالقيم الأخرى لاعتقادهم أنها نصيحة أو ندب لظهورها مرة واحدة، فإن القراءة الأعمق للقرآن تصل التعارف بالمعروف، وهو مفهوم يرد في القرآن مئات المرات. والرحمة من جانب الإنسان تجاه أخيه الإنسان قد تفهم بطريقة فردية، أما التعارف والمعروف فلا يمكن فهمهما إلا بطريقة شاملة؛ أي: في العلاقات بين البشر على اختلاف أديانهم وثقافتهم وأخلاقهم. فالآيات القرآنية تفترض قواسم مشتركة أساسية تتمثّل في المساواة والكرامة والمعروف أو التعارف، وهي القيم والمعاني التي ينبغي أن تسود في العلاقات بين الأمم ذاتها[3].

ومقصد العملية التعارفية القرآنية وغايتها الكبرى تحقيق الخيرات؛ ﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [البقرة: 148]، والخير مفهوم يتسم بالعمومية والشمولية تتطابق حدوده لدى رضوان السيد مع مفهوم المعروف. وبحسب ما يلحظ فإن «القرآن يدعو المسلمين للتنافس مع غيرهم في استباق الخيرات دونما تحديد لتلك الخيرات باعتبارها معروفة ومشتركة بين بني البشر، ولا ينفرد بها المسلمون معرفة وتحديداً»، ومن ثم فليس من حق المسلمين الانفراد بتحديد القيم التي يشاركون فيها البشرية؛ حيث إنهم ينفصلون بهذا عن بقية البشر، وتتعملق لديهم أوهام الخصوصية[4].

1 ـ سنن الترمذي، كتاب البر والصلة عن رسول الله، باب ما جاء في الرحمة، رقم الحديث 1924.
2 ـ صحيح البخاري، كتاب المساقاة الشرب، باب فضل سقي الماء، رقم الحديث 2234.
3 ـ رضوان السيد، القرآن والتاريخ: الرؤية القرآنية في الأمم والحضارات، م. س، ص18.
4 ـ المرجع السابق نفسه.

العدالة؛ أما قيمة العدالة فهي ظاهـرة الحضور في الخطاب القرآني، وهي تعني الاسـتقامة في النظر والعمل، والاسـتقامة والتوازن في العلاقات بين الناس. والقرآن يقرر أن اللّه سبحانه لا يريد ظلماً للعباد، بَيْدَ أن قيمة العدل هي في الأعـم الأغلب في العلاقات بين الأفـراد، وفي العلاقات بين الأمم. وهي ضرورية حينما يتعلّق الأمر بالكرامة والحقوق، وتفهم في سياق المسـاواة والرحمة والتعارف عندما يتعلّق الأمر بالأفـراد أو العلاقات بين الأمم[1]، فتلازم السلام والعدل وثيق، وترابط الأمن والقسط وطيد؛ فالعدل مفتاح السـلام. إن ما يعرفـه عالمنا من توتر وحروب ناجمٌ بالأسـاس عن غياب العدل، وحين نتأمل في هذا الارتباط بين السلام والعدل فلسـفياً؛ نجد أن السلام كقيمة مطلقة لا يمكن في الواقع أن يقوم إلا على مبدأ العدل الذي يُعدُّ شرطاً لإخراج السلام من أزمته الحادة، فهو مفتاح للسلام الدائم.

إنّ التعارف والمعروف فلا يمكن فهمهما إلا بطريقة شاملة؛ أي: في العلاقات بين البشر على اختلاف أديانهم وثقافتهم وأخلاقهم

الخير العام؛ وخاتمة منظومة القيم القرآنية قيمة الخير العام، ومفرد الخير هو الأكثر وروداً في القرآن بعد الرحمـة والرحمن والرحيم، وهو يعنـي الأحسـن والأجمـل فـي التفكيـر والفعل والتصرف. والملحوظ أن القرآن يجمع خيـراً على خيرات عندما يتعلّق الأمر بالعلاقات مع الأديان والأمم الأخرى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾. ومن الواضح أن هذه القيمة الكبرى تتعالق وتتشـابك مع بقية أجزاء المنظومة مثل: الرحمة والتعارف والعدالة[2].

إن الخطـاب القرآنـي يعد المنظومة القيمية هاته مسـددة إن سـادت للنظرة إلى العلاقات بين الأمم والحضـارات، وأنها تحتوي على الضمانات التي تحول دون الفساد والإفساد لطبيعة الإنسان وفطرته، ولعلاقات الناس

1 ـ المرجع السابق نفسه.

2 ـ المرجع السابق نفسه.

بعضهم ببعض»[1]. وعليه فهذه القواسم المشتركة التي ذكرت وغيرها، هي بمثابة أرضية ثابتة، يمكن البناء عليها من أجل علاقات قائمة على المساواة والعدل والحرية... بين دار الإسلام وغيرها من الأمم والشعوب الأخرى، والإسلام بفضل منظومته القيمية قادر على أن يؤدي دوراً بالغ الأهمية والفعالية على مستوى نشر السلام العالمي، فهو ـ أي الإسلام ـ يعرف نفسه ليس كدين محمد ﷺ؛ إنما دين الله تعالى، الذي أسسه النبي إبراهيم عليه السلام أصلاً، انطلاقاً من هذا الإرث المشترك. ويشير القرآن إلى طريقة تقديم المسلمين لأي أطروحات عالمية أو نقاش جدي يهم البشرية بالقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: 13].

ويعني ذلك ـ فيما يعنيه ـ أن التكليف الرئيس لأهل دار الإسلام هو البحث عما يجمع لا ما يفرّق، وتدعيم المشتركات القيمية والعمل على نشرها. فالمنظومة القيمية في الاجتماع الإنساني قائمة على ديننا، وهي ـ كما بيّنّا ـ حافلة بالقيم المشتركة مع سائر البشر، وتنسجم تماماً مع ما أكدناه سلفاً من مشتركات قيمية.

دار الإسلام والأدوار الكبرى في مجال تحقيق المشتركات القيمية

في الكتاب والسُنَّة ومرحلة القدوة والتأسّي ـ من العدل والحرية والمساواة والتعاون والدعوة إلى التعايش والتسامح ـ ما يؤهلنا لدور رسالي عالمي وإنساني، وفي تاريخنا السياسي والثقافي وتجربتنا الحضارية وتجسيد قيم الإسلام في واقع الناس معين لا ينضب؛ إنه يشكّل بوصلة تحدد الاتجاه، ودليل عمل وتعامل مع كل الظروف والأحوال... وقد يكون من المفيد الإتيان على بعض الأمثلة والنماذج للرؤية الإسلامية المبكرة لمواثيق ومعاهدات المواطنة والعالمية والتعاون المشترك، ففي وثيقة المدينة ـ التي تعدّ بحق ميثاق المواطنة بين الأديان والأجناس والقبائل

1 ـ المرجع السابق نفسه.

المختلفة ـ أبعاد لمَّا تصل إليها الدول ولا مؤسسات التعاون الدولي. وفي معاهدة الحديبية ـ مع الأعداء والخصوم ـ أنموذج متميز. وفي حلف الفضول، الذي حضره الرسول ﷺ قبل النبوة وقال بعد النبوة: «... **ولو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت**» الذي تم فيه التوافق على إيقاف الظلم ونشر العدل وردّ المظالم، والتعاهد على ألا يبقى مظلوم في المجتمع؛ في هذا كله ما يدل على الاستعدادات والتوجهات المبكرة صوب الخير والقيم الإنسانية؛ للتلاقي على الحق وبناء المشترك الإنساني، فهل نستجيب للدعوات ونسهم بفعل الخير وإنقاذ الناس؟

في الكتاب والسُنَّة ومرحلة القدوة والتأسّي ـ من العدل والحرية والمساواة والتعاون والدعوة إلى التعايش والتسامح ـ ما يؤهلنا لدور رسالي عالمي وإنساني

وفي شعب أبي طالب، وما كان من التحالفات بين المسلمين وغيرهم، والحصار، وما انتهى إليه الشأن من نقض الوثيقة؛ ما يمنح آفاقاً وفضاءً واسعاً من المعاني والعبر. وفي حكمة الرسول ﷺ قبل الإسلام من وضع صيغة للتشارك من القبائل جميعاً لرفع الحجر الأسود ـ بعد الصراع حول نيل شرف رفعه إلى مكانه من بناء الكعبة ـ صناعة مبكرة وحكمة بالغة لبناء المشترك الإنساني. هذا عدا ما في كتب الرسول ﷺ ورسائله إلى الملوك والأمراء، واستقباله للوفود، ومبايعاته الخاصة والعامة، من أبعاد إنسانية وحرص على الوصول لبناء المشترك الإنساني ونظم العقد الاجتماعي[1].

دار الإسلام ووجوب تفعيل استراتيجية المشتركات القيمية

إن هذا الإرث التاريخي يفرض على أهل دار الإسلام الانخراط والمشاركة والإسهام في المؤتمرات والقرارات التي تهدف إلى تحقيق هذه الأهداف الإسلامية والإنسانية الكريمة العليا، وإن هذا الانخراط يُعدُّ من أحسن

1 ـ انظر، عمر عبيد حسنة، مقدمة كتاب، سامي إبراهيم الخزندار، المنظور الحضاري: المنظمات الدولية رؤية تأصيلية، وزارة الأوقاف، قطر، العدد السابع والأربعون بعد المائة، ط، الأولى، 2011م.

الإسهامات وأفضل المشاركات المرغوب فيها، وأجد نفسي مضطراً لإعادة قول النبي ﷺ في حلف الفضول الذي عقد في الجاهلية في دار عبد الله بن جدعان، واشترك فيه جميع بني هاشم، وسعى في عقده عم النبي الزبير بن عبد المطلب، وكان تحالفاً على منع الأقوياء عن ظلم الضعفاء، وقد شارك النبي ﷺ في ذلك الحلف، وقال بعدما بعث بالرسالة الإلهية: «**لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا، لو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت**».

فالأحلاف والمؤتمرات والاتفاقيات والقرارات إن كانت تسعى إلى تحقيق أهداف مقدسة، وتهدف لغايات شريفة كريمة؛ فالإسلام هو أول من يقرّها ويرغب في الإسهام فيها، ويدعو إلى تفعيلها، فالطبيعة العالمية للإسلام تدعو إلى الاتصال بالحضارات والأمم الأخرى، فما دامت دار الإسلام تحمل رسالة حضارية إلى أمم أخرى غير مسلمة يفرض عليها الشرع إقامة علاقات تعاون مع هذه الأمم، وهذه العلاقات هي في حقيقتها تفاعل حيوي، أي تتفاعل مع هذه الأمم تأثيراً وتأثراً، مما يمكّن من شيوع قيم الإسلام في العدل والمساواة والحرية والتعاون الموصوف بالبر والتقوى...

خاتمة:

ختاماً نؤكد أنه لا سبيل أمام البشرية للخروج من مأزقها الوجودي الذي تعيشه سوى تفعيل استراتيجية المشتركات القيمية؛ باعتبارها حجر الزاوية في إدارة شؤون المجتمع العالمي، فمن دون مشتركات قيمية سوف تزداد الأزمات استفحالاً والتوترات حدة، ومن دون تفعيل استراتيجية المشتركات القيمية ستواجه أفضل المؤسسات الفشل. ولديننا ولحضارتنا وأمتنا أدوار كبرى في هذه المجالات التي تؤهلنا لها منظومتنا الأخلاقية وأعراقنا الحضارية التي يتضمنها ديننا. وما على دار الإسلام سوى الشراكة مع العالم والإسهام في تفعيل استراتيجية المشتركات القيمية، فالأصل أن كل ما هو إنساني فهو إسلامي... والرحابة كل الرحابة إنما تأتي من الشراكة مع مختلف مكونات المجتمع الإنساني حول تلك القيم والإسهام في صياغتها وتفعيلها، وهو ما ينقذ دار الإسلام من التشدّد غير المسوغ، والتنازل غير المقبول في الوقت نفسه.